

فكرة "المقام" بين البلاغة و الإبلابية

أ.سلمى شويط. جامعة جيجل/ الجزائر

المقام في الدرس البلاغي:

أول علماء البلاغة في الدرس البلاغي العربي عناية كبيرة بفكرة المقام أو باصطلاح آخر " مقتضى الحال" و هذا لأهمية هذه الفكرة لإيصال المعنى وإفادته و تحقيقه لمبدأ التواصل البلاغي.

إذ لا يخلو كتاب بلاغي بدءا من الجاحظ من الإشارة إلى قضية المقام والتفصيل فيه حتى تعدى المناسبة الخارجية لأداء القول إلى مناسبة اللباس و الهيئة و المظهر الخارجي المصاحب لأداء نوع من الكلام على حساب نوع آخر . و المقام عند علماء البلاغة شرط أساس و استحضاره مبدأ مساعدا لفهم ذلك العمل التواصلية حتى تمامه و قد أفرد علماء البلاغة ل " المقام " مجالا كبيرا من التسطير و التنظير حتى يدرك كنهه و يعتد به أثناء إنشاء الكلام من خلال صفحات مصنفاتهم القيمة .

إذ لا يكاد يخلو مصنف من التأسيس له حتى و إن كانت إشارة عابرة فقط . و يمكن الاستشهاد بما جاء عند الجاحظ نقلا عن كلام "بشر بن المعتمر" في قوله : « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، و يوازن بينهما و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما و لكل حالة من ذلك مقاما حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات و أقدار المستمعين على أقدار الحالات» (1) .

إذ يمكن القول عن هذا الإجراء إنما هو جامع لجميع الحالات و معتمد لجميع التعاريف، التي توضع ل "المقام" مؤسسة أو شارحة له .

- و عل الرغم من إيغال البلاغة الكلاسيكية في الشكلية إلا أن أصحابها قد فطنوا إلى الصفة الاجتماعية المتحققة من اللغة و مدى تفاعل هذه الأخيرة مع متطلبات الكائن البشري، و التفاعل ذلك إنما متحقق و متغير في المقام و بحسب المقام ، فحصر بذلك المقال بحسب المقام و منه أصل لمبدأ لكل مقام مقال، خاصة و أن صور المقال تختلف بحسب اختلاف المقامات الملائمة لها . (2)

3- عناصر المقام :

و يشترط المقام الذي يقال فيه المقال كغيره عناصر ذات أهمية بالغة وأساسية منها:

أولاً: المخاطب (الباث)

و هو المكون أو المحور لموضوع ما قصد إرساله، و لكل مخاطب أو متكلم هيئته و طريقته في الكلام بحسب الموضوع و المكان و الزمان، « فمشاهدة المتكلم أثناء الكلام الفعلي تعين على فهم الحدث اللغوي بل التعرف على كل صفات المتكلم، ذلك أن لكل متحدث معجمه الخاص و مفرداته التي يتألف معها...» (3)

ثانياً: المخاطب (المتلقي)

و هو الموجه إليه الخطاب أو الرسالة من المخاطب « عنصر من عناصر المقام، و هو اقتضاء الموقف، و قد أولاه البلاغيون عناية ... بما أسموه مراعاة حال المخاطب و هو المستمع الذي عناه العالي بما صدر عنه من مقال .. » (4).

ثالثاً: الخطاب (الرسالة)

و هو موضوع الخطاب الموجه للمخاطب، و شرطه أن يكون ملائماً مناسباً لظرفه و مقامه على أساس أنه « تختلف الانماط اللغوية باختلاف

الموضوعات التي تدور حولها و يعبر عنها الحديث، ... فمجال الحديث Field of discours يتصل بالآثار المترتبة على الدور الذي يؤديه المتكلم». (5)

3- بين استعمال مصطلح المقام و مصطلح السياق:

مصطلح المقام هو المصطلح السائد خاصة في الدرس البلاغي القديم، بينما مصطلح السياق يطلق في الدرس اللساني الحديث بكل أبعاده و يشمل المقام أي السياق غير اللغوي.

إلا أن هنالك من يستعمل لفظ سياق و مقام دونما تمييز غير أن " مقام " يستعمل كذلك كمصطلح أكثر فهما و يشتمل النص و السياق. (6)

و هناك من عده مستوى من مستويات اللغة و أهمها، و هو " شارودو " 1995 و أقر بأنه « ذلك المستوى الذي تحدد فيه شروط عقد التخاطب المطابق لنوع الخطاب: غاية الفعل، هوية المشاركين، الموضوعات الواجب معالجتها، والجهاز الفيزيائي للتبادل (الديكور، وسيلة الاتصال) ففي هذا المستوى تمارس القيود التي تسمح للاتصال، التبليغ بأن يكون فعلا لغويا أكبر نجاحا » (7)

و مصطلح السياق مصطلح قائم بذاته في الدرس اللساني هذا الأخير بإطلاق أعم يعد نظرية لسانية في الدرس الحديث يمكن أن نقول عنها أنها بديلة لما كان يعتد به في الدرس البلاغي، و هو فكرة " المقام " أو " مطابقة الكلام لمقتضى الحال " و خاصة هذه الأخيرة إنما هي « تعريج على الأساليب المتنوعة في البلاغة و التركيبية و ما يعترى ذلك من تحليل شبكة علاقات النظم و السياق و الأسلوب ... » (8)

و إذا كان مصطلح " السياق " مصطلحا بديلا عن مصطلح " المقام " لا يعني هذا أن المقام اختزل مفهومه و اقترن إطلاق اصطلاحه بالبلاغة الكلاسيكية و إنما بقي كمفهوم و كإطلاق اصطلاحى مرادفا لمصطلح " السياق " أو لربما أعم فائدة .

خاصة و أن فكرة المقام في الطرح البلاغي مساوية لعبارة " مقتضى الحال " في معظم الجوانب، و هذه العبارة هي الأخرى لها بديل اصطلاحي في الدرس اللساني الحديث ألا و هو الموقف.

و عبارة مقتضى الحال مستمدة من تعريف البلاغة عند العرب و ذلك بأنها « مطابقة الكلام لمقتضى الحال و هذا التعريف يلتقي مع وجهة نظر الدرس الأسلوبى فيما يسمى " الموقف " و بخاصة و إذا عرفنا أن عبارة " مقتضى الحال " لا تختلف عن كلمة " الموقف " و بخاصة إذا عرفنا أنه يقصد بكلمة " الموقف " مراعاة الطريقة المناسبة للتعبير «(9) و بهذا فنحن أمام أربعة اصطلاحات : اثنان تراثيان " المقام " " مقتضى الحال " و آخران حديثان: " السياق " و " الموقف " وعلى الرغم من وجود حدود اختلافية بينهم إلا أن بوثقه العمل واحدة بالنسبة إليهم و خاصة التأكيد على التفاعل التواصلى الإبلاغي .

4- المقام و التفاعل التواصلى:

لعل تحديد قيمة و فعالية مشاركة المقام في العملية التواصلية التبليغية يعد ضربا من ضروب المبالغة، إلا أن له دورا بالغ الأهمية لا يمكن إغفاله من قريب أو بعيد .

فهو شرط أساس في العملية البلاغية و ركيزة كبرى يعتمد عليها الدرس البلاغى في القدم و الحديث كذلك، و هناك من لم يقف عند حدود هذه العمومية بل جعل منه مستوى من مستويات اللغة و لربما أهمها إذ فيه تحدد شروط عقد التخاطب (10)

و إن كان شرط تحقيق التبليغ في المقام الواحد أو الموقف الاتصالي وجود شخصان على الأقل. « أحدهم فاعل حقيقي و الآخر على جهة الإمكان أي المتكلم أو المخاطب على التوالى »(11)

فلقد « اعتمدت الدراسة الاثنية للاتصال Ethnographie de la communication مفهوم الملكة الاتصالية التبليغية لكي يقيض للفرد الكلام لا بد له أن يحسن استعمال اللغة بكيفية مناسبة تتماشى و المقامات والأحوال المتنوعة» (12)، و بالتالي تحقيق المبدأ البلاغي في البلاغة الكلاسيكية لكل مقام مقال.

و إذا أردنا تأكيد الطرف الآخر من إشكالية المقال ألا و هو التأكيد على ابلاغية استخدامها بين الملق و المتلقي، و الرسالة المرسله بينهما في ألوان البلاغة والتركيبة.

على " فكرة المقام" و مساهمتها الفعالية في التواصل، يكفي أن نقول أنها شرط من شروط تحقق النصانية في نص ما « ففي البناء النصي.. النص ككلية أو بنية دلالية ساهمت كل وحداته أو عناصره و مكوناته في بنائه و تبيينه، و من خلال عملية التلقي تتم إعادة بنائه وفق هذا الكل و معنى ذلك أن كل " بنيات" النص متكاملة منسجمة في خلق هذا البناء» (13) و لأن المقامية تقف عند أولى هذه البنيات .

و لا تقف حدود الابلاغية لفكرة " المقام عند هذا الأمر بل تتعدى ذلك لتشمل أكثر النظريات اللغوية التي تهدف لتحقيق مبدأ التواصل إلا أن الأكثر تجليا و وضوحا في الاعتماد على هذه الفكرة نجد التداولية التي هي نظرية تجتمع إليها النظريات اللسانية و تعرف في معظم الأقوال بأنها ذلك « الفرع العلمي من مجموعة العلوم اللغوية الذي يختص بتحليل عمليات الكلام بصفة خاصة ووظائف الأقوال اللغوية و خصائصها خلال إجراءات التواصل بشكل عام ... » (14)

و إجراءات التواصل هذه إنما تتضمن شروطا كثيرة و مهمة في العملية الابلاغية أهمها هو تحلي السياق أو فكرة المقام خاصة و أنها تعنى « بالشروط

الهوامش:

- 1- أبو الفضل جمال الدين محمد مكرم بن منظور، لسان العرب « ط 1 ، بيروت ، دار صابر، 2000» مادة " ق، و، م، حصص -ص 223-224 .
- 2- عثمان عمرو بن بحر بن الجاحظ، البيان و التبیین « دط، لبنان، بيروت، دار الفكر للجميع، 1968» مج 1، ص 97.
- 3- تمام حسان، اللغة العربية معناها و مبناها، « ط 3، عالم الكتب، 1998/1418» ص 337.
- 4- عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين- دراسة لغوية نحوية دلالية « ط 1، الاسكندرية، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، 2007» ص 84.
- 5- محمد بدري عبد الجليل، تصور المقام في البلاغة العربية « دط، دار المعرفة الجامعية، 2003» ص 36.
- 6- عبد المنعم خليل، نظرية السياق بين القدماء و المحدثين، ص 87 .
- 7- دومينيك مانقو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ترجمة محمد يحاتن « ط 1، منشورات الاختلاف، 2005».
- 8- دومينيك مانقو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 108.
- 9- محمد بركات حمدي أبو علي، البلاغة العربية في ضوء الأسلوبية و نظرية السياق « ط 1، دار وائل للنشر، 2003» ص 7.
- 10- يوسف ابو العدوس، الأسلوبية الرؤية و التطبيق « ط 1، الأردن، عمان، دار الميسرة للنشر و التوزيع، 2007-1427» ص 81.
- 11- دومينيك مانقو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 108.
- 12- فان دايك، النص و السياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي و التداولي، ترجمة: عبد القادر قنيني، « دط، لبنان، بيروت: افريقيا الشرق، 2000» ص 21.
- 13- دومينيك مانقو، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 21.
- 14- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي- النص و السياق « ط 2، لبنان، بيروت، المغرب، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2001» ص 18.
- 15- صلاح فضل، بلاغة الخطاب و علم النص، « ط 1 ، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1996» ص 21.
- 16- المرجع نفسه، ص 24.
- 17- المرجع نفسه، ص 24.

- 18- سعيد حسن بحيري، علوم لغة النص، المفاهيم و الاتجاهات « ط1، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونيحمان: مكتبة لبنان ناشرون، 1997 « ص 10.
- 19- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب، ص 323 .
- 20- فان دايك ، النص و السياق، ص 259.
- 21- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 18.
- 22- سعيد يقطين، انفتاح النص الروائي، ص 18.
- 23- دومينيك مانقر، المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، ص 25.
- 24- عبد الهادي بن طاهر الشهري، استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية « ط1، دار الكتاب الجديد، 2004 « ص 43.